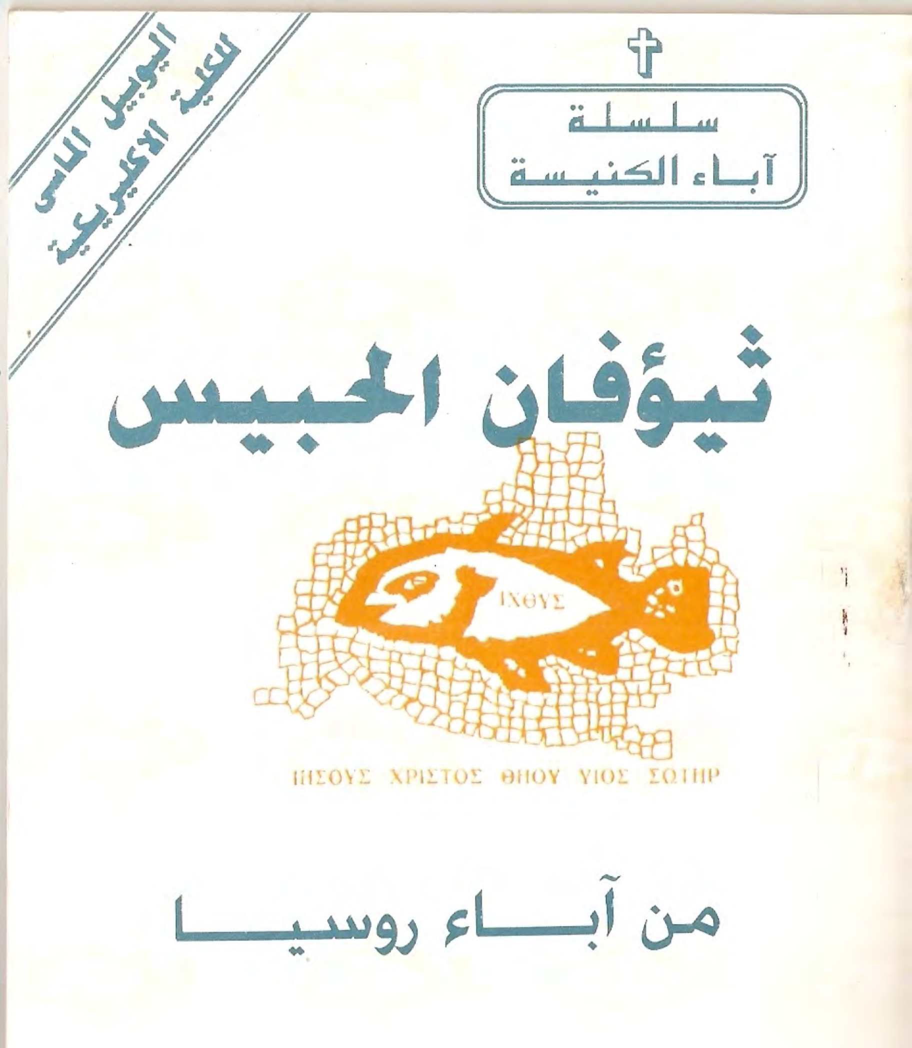


اليوبيل الماسى للكلية الإكليريكية

سلسلة
آباء الكنيسة

ثيؤفان الحبيس

من آباء روسيا

†

علم الباترولوچى

سلسلة آباء الكنيسة

ثيؤفان الحبيس

THEOPHAN THE RECLUSE

ترجمة وإعداد

أنطون فهمى چورج



Saint Theophan

الكتـــــاب : ثيؤفان الحبيس

ترجمة وإعداد : أنطون فهمى چورج .

المطـبـعـة : الأنبا رويس (الاوفست) ـ العباسية ـ القاهرة .

رقم الإيداع : ١١٥٨٧ / ١٩٩٤م.

تطلب من :

=======

كنيسة مارجرجس ـ اسبورتنج ـ الاسكندرية .

ص.ب.١٧ الابراهيمية ـ ت. (٠٣/٥٩٦٩٨٨٨).

كنيسة القديسين ـ سيدى بشر ـ الاسكندرية .

ت. (٠٣/٥٤٨٧٧٢٨).



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



مقدمة

لقد وهب الرب لكنيسته آباء عظام يعملون باسمه ولحسابه لا بامكاناتهم البشرية بل بنعمته وبحسب مسرته ، مضيئين بزيت البهجة فى الجهاد وأتعاب النسك والسهر والقداسة .

عملوا بلا رخاوة فى حقل الرب وسلكوا نحو السماويات ليلاً ونهاراً فتعطرت برائحتهم الطيبة كل الأرجاء ، كالنخلة يزهرون وكمثل أرز لبنان ينمون .

اغنوا الكنيسة بمؤلفاتهم القيمة وكتاباتهم الحية التى عملوها وعلموا بها ، فأعطوا للكنيسة دفقاً جديداً وأنموها بوفرة ، فمنهم وبواسطاتهم أخذنا وتسلمنا التعليم الإنجيلى مشروحاً ومعاشاً ، ومن الحياة التى ننهلها منهم تعيش الكنيسة اليوم .

وكما أن الأشجار المثمرة من باطنها فى آوان الاثمار تُبرز

الثمر مع الورق ، كذلك كل معلم فى الكنيسة يحمل ثماره (أعماله) وأوراقه (كلامه): الشهداء يحملون فخر صبرهم وعذاباتهم ، والنساك يحملون أتعابهم ونسكهم الساهر ، والمعلمون يحملون أثمار المعرفة الإلهية غير الزمنية .

كانت مخافة الله ينبوع حياتهم وتنقية عقولهم وصيانة نفوسهم ونعمة تصرفاتهم ومديرة سلوكهم ، تنمى محبتهم وعشرتهم وتقطع شهوتهم ، فصاروا مغبوطين لأنهم صنعوا مشيئة خالقهم مثل نور يرشدوننا إلى الخلاص ، وكمدينة حصينة فوق جبل كسراج على منارة يهدى أقدامنا فى الطريق .

ومن بين هؤلاء الآباء تأتى سيرة **الأب ثيؤفان الحبيس** والمعتبر من أشهر الآباء النساك الروس ، الذى اشتهر بمحبته للخدمة وبمساعدته للمحتاجين كما عشق التأمل والوحدة (الحبس) .

زار الأديرة القبطية واقتنى المعرفة الآبائية فصار فيلسوفاً وواعظاً ومربياً ومعلماً ومرجعاً فى علم الباترولوچى ، وجاءت كتاباته نسكية عملية بل ومن روائع الأدب النسكى الروسى .

إننا نقدم سيرته العطرة ضمن **سلسلة آباء الكنيسة** ΙΧΘΥΣ بمناسبة اليوبيل المئوى للكلية الإكليريكية القبطية ، فالمتأمل فى الدور الذى تقدمه الاكليريكية يلحظ بوضوح أن التعليم الإكليريكى يتمتع بمكانة متميزة فى بؤرة شعور المعنيين بالخدمات التعليمية ، لذلك نتمنى مزيد من خطط التطوير فى المناهج وفى أساليب التدريس والبحث وفى التلمذة الروحية التى تضمن للإكليريكية الاستمرار والفاعلية بنفس قوة البدايات وحماستها ووضوح رؤيتها .

والكنيسة كلها ترنو إلى شخص الجالس على عرش مارمرقس الرسول قداسة البابا **الأنبا شنوده الثالث** الذى يقود مسيرتها نحو أورشليم السمائية...

الله أبونا السماوى ينهض حياتنا لنخدمه ما يليق بجلاله... له المجد والكرامة من الآن إلى الأبد آمين .

ثيؤفان الحبيس

THEOPHAN THE RECLUSE

يقول سرجيوس بولشاكوف فى كتابه «النساك الروس» :

«إن القديس ثيؤفان الحبيس هو أعظم كاتب روسى فى الموضوعات النسكية ، ليس فقط فى القرن التاسع عشر ، بل فى تاريخ روسيا كله ، وهو لم يكن مجرد واضع لنظريات نسكية ، بل كان ايضاً إنساناً يتمتع بخبرة نسكية عميقة ومتنوعة» .

وُلد ثيؤفان فى العاشر من يناير عام ١٨١٥م فى قرية *Chernavask* فى مقاطعة أوريل *Orel*، وسماه والداه باسم چورچ وكان أبوه باسيليوس جوفروف *Basil Govrov*، كاهن هذه القرية ، رجلاً تقياً وباراً ، أما أمه فكانت عطوفة ومحبة للكنيسة ، وعاش چورچ طفولة سعيدة جزلة ونشأ فى بيئة مسيحية .

وبعد أن تسلم مبادئ الإيمان فى البيت ، إلتحق عام ١٨٢٣م بالمدرسة الإكليريكية فى *Livny* حيث كان من أفضل الطلبة ، وفى عام ١٨٢٩م التحق بمعهد أوريل ، وهناك تأثر كثيراً باستاذ الفلسفة أكثر من الكل .

اهتم چورچ كثيراً بالفلسفة وعلم النفس ، وفى عام ١٨٣٧م ـ بعد أن أنهى دراسته فى معهد أوريل وحاز على أعلى التقديرات ـ أرسل إلى أكاديمية كيف الكنسية *Kiev Ecclesiastical Academy* وهناك كان طالباً نابغاً تماماً كما كان فى أوريل .

فى هذه الفترة بدأ الشاب المجاهد يظهر ميلاً نحو الحياة التكريسية ، وكان كثير التردد على أديرة كيف التى تركت تأثيراً وإنطباعاً فى نفسه ، واخيراً قرر أن يكمّل حياته فى السيرة الرهبانية المقدسة ، وكان ذلك يتفق تماماً مع ميوله الطبيعية وإرادته القوية ، فصلاح قلبه غير المحدود وخجله والطريقة التلقائية التى كان يثق بها فى كل أحد دون أن تزول هذه الثقة ابداً ، كل ذلك كان ملائماً تماماً للسيرة الملائكية .

وفى الخامس عشر من فبراير عام ١٨٤١م سيم راهباً باسم ثيؤفان ، وسيم معه ايضاً الراهب بولجاكوف *Bulgakov* الذى صار فيما بعد مؤرخاً للكنيسة الروسية ولاهوتياً ثم مطراناً لموسكو ، وبعد السيامة زار الراهبان الصغيران أشهر نساك أديرة كيف وهو الأب بارثينيوس *Parthenius* الذى قال لهم :

«أنتم أيها الرهبان المتعلمون تعرفون الكثير ، لكن تذكروا أن أهم عمل على الأرض هو الصلاة ، صلوا بلا انقطاع إلى الله بكل قلبكم وذهنكم ... لابد أن تكون هذه هى الغاية التى تطلبونها على الدوام» .

وقد حفظ ثيوفان هذه النصيحة فى قلبه جيداً ، وكتب فيما بعد معلقاً على هذه النصيحة: «عندما قال الستارتز (المرشد) ذلك اكتشفت أن هذا كان ما أردته دوماً منذ طفولتى المبكرة ، وفى ذلك اليوم صليت من عمق قلبى للرب كى لا يعوقنى أحد عن البقاء دوماً معه» .

وفى عام ١٨٤١م تعين الأب ثيؤفان ناظراً لمدرسة كيف الإكليريكية ، ثم فى عام ١٨٤٢م تعين استاذاً للمنطق وعلم

النفس ومفتشاً لمعهد نوفجورود *Novgorod*، وبعد عامين صار ثيؤفان استاذاً فى أكاديمية بطرسبرج الكنسية ، وفى عام ١٨٥٥م صار مديراً لمعهد أولونتز *Olonetz*، وفى عام ١٨٥٧م صار مديراً لاكاديمية بطرسبرج ، وفى خدمته التعليمية هذه كان تعليمه واضحاً وجذاباً وباعثاً على الحماس والغيرة فى تلاميذه ، وكان متميزاً فى اللاهوت الأخلاقى وفى نظرية وممارسة التربية .

وفى فترة استاذيته فى بطرسبرج ، فى عام ١٨٤٧م ، قررت الحكومة الروسية إرسال وفد كنسى إلى أورشليم لدراسة حالة الأرثوذكسية فى الشرق الأوسط ، ولتأسيس خدمة روسية دائمة فى فلسطين ، وكان ثيؤفان أحد أعضاء هذا الوفد ، وفعلاً ذهبوا إلى أورشليم ، ومن هناك انتقل أعضاء الوفد إلى البلدان المختلفة فى الشرق الأوسط ، سوريا ، مصر وسيناء ، جبل أثوس ، وكانوا يزورون المكتبات ويحققون المخطوطات ، وقد عمل ثيؤفان بصفة خاصة فى مكتبة دير سانت كاترين فى جنوب سيناء ومكتبة دير القديس سابا فى فلسطين ، كما زار الأديرة القبطية ايضاً ، وصارت له علاقات حميمة مع

الاكليروس الأرثوذكس فى تلك البقاع ، ودرس ثيؤفان ايضاً أحوال الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية فى الأراضى المقدسة ، وخلال هذه الأعوام تعرف على الجهادات والتدريبات النسكية فى الشرق ، كما تعلم الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية ، وفى عام ١٨٥٥م عاد الوفد إلى روسيا ، وفى عودتهم قضوا بعض الوقت فى إيطاليا وألمانيا .

واستمرت هذه الرحلة ثمانى سنوات جمع خلالها ثيؤفان العديد من المخطوطات والكتب النادرة من الأديرة المختلفة التى زارها ، ولكنه أعطاها فيما بعد لمكتبة معهد أولونتز ، والتى كانت تشتهر بما فيها من نصوص حسنة الترتيب ، وكان ثيؤفان يُعتبر من الأعلام والمراجع فى علم الباترولوچى فى روسيا كلها ، نظراً لما درسه من أبائيات فى هذه الرحلة ، ولما اقتناه من كتابات آبائية ثمينة .

فى عام ١٨٥٧م أُختير ثيؤفان ليمثل الكنيسة الروسية فى القسطنطينية أثناء الجدال البلغارى ، وقرر ثيؤفان أن البلغاريين لهم كل الحق فى أن يكون لهم أساقفتهم وإكليروسهم لكى

يصلوا باللغة السلافية *Slavonic* كما كانوا يطلبون ، وعند عودته إلى روسيا ، تعين ثيؤفان مديراً لأكاديمية بطرسبرج كما أسلفنا وظل هناك لمدة عامين .

وفى الأول من يونيه عام ١٨٥٩م سيم الأرشمندريت ثيؤفان أسقفاً على كرسى تامبوف *Tambov* حيث ظل هناك لمدة أربعة سنوات ثم نُقل * إلى إيبارشية ڤلاديمير *Vladimir*، وظل هناك لمدة ثلاث سنوات فقط ، وفى كلٍ من هاتين الإيبارشيتين (تامبوف وڤلاديمير) أنشأ القديس مدرسة داخلية للبنات وأصدر مجلات خاصة لكل إيبارشية ، وبذل قصارى جهده ليرفع من مستوى عظات الإكليروس وتعليمهم ، وأعد دورات خاصة للوعاظ ، إذ كان هو نفسه واعظاً بارعاً .

وفى خدمته الأسقفية فى الإيبارشيتين ، لم يكن ثيؤفان يكل بل كان ساهراً ليلاً ونهاراً ، دائب النشاط والحركة فى

---

* تجدر الإشارة هنا إلى أنه فى الكنيسة الروسية يتنقل الأب الأسقف والمطران بين الإيبارشيات دون أن يُجلس على إيبارشية واحدة على الدوام ، وذلك بخلاف تقليد كنيستنا المقدسة الحكيم الذى يُجلّس الأب الأسقف على كرسى إيبارشية واحدة .

الإيبارشية ، يصلى قداسات كثيرة ويعظ ويعلم ويسافر من قرية إلى أخرى بلا كلل ، ليعرف خراف قطيعه كل باسمه ، وأسس العديد من لجان الخدمة الناجحة ، والتى كانت تهدف إلى إرجاع الخراف الضالة إلى حظيرة الكنيسة ، واهتمت هذه اللجان بصفة خاصة بتوسيع الكنائس ومدارس الفقراء ، واهتمت بتجديد المبانى الكنسية القديمة..

كان ثيؤفان أباً حنوناً للجميع ، فكان يشاركهم فى أفراحهم وأحزانهم ، وكان يساعد المحتاجين قدر استطاعته فى حالات الكوارث والحريق والحوادث إلخ ، وعاش ببساطة تامة ، فكانت ثيابه بسيطة ولا يأكل إلا مرة واحدة فى اليوم ، وكان يعامل أبنائه من الاكليروس بعطف وأخوّة كما لو كانوا أصدقاء له .

وفى أثناء خدمته فى تامبوف ، حدث جفاف حارق ، نتج عنه أن اندلعت النيران باتساع ليس فقط فى تامبوف نفسها ، بل وايضاً فى العديد من مدن وقرى الإيبارشية ، فكان ثيؤفان ملاك تعزية لشعبه ، وكان يعظ شعبه مشاركاً إياهم فى

أحزانهم ، متحدثاً على غرار حديث القديس اغريغوريوس النيصى فى كتابه «حياة موسى» ، فقال لهم أن حالة مدينتهم كحالة أيوب الذى جاءته المصائب الواحدة تلو الأخرى ، إلا أن الشكر لله على كل حال .

واتخذ ثيؤفان من هذه الظروف فرصة ليحث شعبه على التوبة ، وعلمهم أن يحزنوا كمسيحيين وليس كوثنيين ، لأن الحزن والبكاء هما فعل إنسانى ، أما اليأس فهو من الشرير ، لذلك «فلننه الحزن بالرجاء» ، وفى إحدى عظاته لهم فى ذاك الحين ، أوضح لهم كيف أن الأرض التى قال الله عنها أنها حسنة جداً قد صارت ثقل على الإنسان ، وما ذلك إلا بسبب الخطية ، لذلك الطريق للخلاص من هذه الضيقة ما هو إلا التوبة «فلننحنى أمام الرب ونبكى ونردد عبارة العشار اللهم ارحمنى أنا الخاطئ ، ولنصرخ إليه بقلوب منسحقة» .

وفى عظة أخرى فى زمان الجفاف ايضاً يحث فيها شعبه على التوبة ، يقول فيما يشبه الصلاة :

«ليس لنا الحق فى الرحمة ولا نستحقها ، فنحن

خطاة فى كل شئ ، فى القول والفعل والفكر وفى كل مشاعرنا ، لكننا نادمون ونتضرع إلى الله ليرحمنا نحن الخطاة!

إذا رأت عينك التى ترى كل شئ أن قلوبنا قاسية وأن إرادتنا فى فعل الصلاح ضعيفة ، ارسل لنا أنت ندم وتوبة وقوّى إرادتنا الضعيفة ، يا الله الرحوم ارحمنا نحن الخطاة.

إننا لا ننتظر خلاصاً سريعاً ، ولا نجروء على أن نقول انه سيكون يوماً أو اسبوعاً أو حتى سنة ، لكن إذ نخضع تماماً لإرادتك ، نرفع صلاة واحدة ، يا الله ارحمنا نحن الخطاة .

لا نجروء على التذمر أمامك ، لكننا فى حالة من الألم القاسى ، وبينما نبكى كالأطفال فى هذا الألم ، نقول يا الله ارحمنا نحن الخطاة .

إننا ضعفاء أيها الرب فلا تسمح بأن نسقط تحت ثقل المحن والبلايا ، بل اعط قوة لقلوبنا ، اصبغنا بالرجاء ، كى لا يطغى اليأس نفوسنا ، يا الله ارحمنا».

وفعلاً وبشهادة الشهود ، تحقق رجاء الأسقف فى نفس اليوم ، عندما بدأت الأمطار الغزيرة تهطل ، فتطفئ النيران وتنهى الجفاف وبالتدريج استعادت للناس طمأنينتهم وسلامهم ويذكر التاريخ الروسى أن ثيؤفان اسقفهم لم يشجعهم ويسندهم بالكلام فقط ، بل ساعد الكثير من المتألمين مادياً .

وإذ كان ثيؤفان يميل منذ أن كان طالباً إلى حياة الخلوة والصلاة ، ازداد اشتياقاً للتفرغ لحياة الوحدة ، وقرر أخيراً أن يترك كرسيه ويحيا حياة التأمل .

وفى ربيع عام ١٨٦٦م تقدم ثيؤفان بطلب إلى المجمع المقدس يلتمس فيه تصريحاً له بأن يترك أسقفيته ويستقر فى دير فيشا فى تامبوف ، وفى ١٧ يونيه عام ١٨٦٦م قبل المجمع هذ الطلب وسمح له بترك إيبارشيته وعينه رئيساً لدير فيشا ، وفى ٢٤ يونيه صلى ثيؤفان أخر قداس له فى الكاتدرائية فى إيبارشيته ، وحضرت أعدادد غفيرة من الناس ، وألقى الاكليروس كلمة يودعونه فيها ، فأجابهم بكلمة رائعة قال فيها :

«لا توبخونى لأجل الرب لكونى أترككم إذ أنى لا أترككم إلا لأنى مجبر على ذلك ، بل أن محبتكم لم تكن لتسمح لى أن استبدلكم بقطيع أخر ، لكن كمثل إنسان مقود ، سأذهب إلى الموضع الذى بلا هم وراجياً باحثاً عما هو أفضل كما هو أمر طبيعى لنا .

كيف وُلد فىّ هذا الاشتياق ، لا استطيع أن أشرح ، لكن يمكننى فقط أن أقول انه بجانب الظروف الخارجية التى تؤثر فى أعمالنا ، هناك ايضاً تغيرات داخلية تفضى إلى نتائج معينة ، فبجانب الضرورة الخارجية ، هناك احتياج داخلى يستمع إليه الضمير والقلب لا يعارضه... وإذ وجدت نفسى فى هذه الحالة ، أسأل من محبتكم شيئاً واحداً فقط ، أن تتركوا مناقشة وإدانة هذه الخطوة التى خطوتها ، وأن تصلوا لأجلى بحرارة كى لا يُخيّب الرب رجائى وكى يعطينى بعد جهادى أن أجد ما أطلب» .

وصل ثيؤفان إلى دير ڤيشا فى ٣ أغسطس وظل هناك حتى نياحته بعد ٢٨ عاماً ، وكان دير ڤيشا كبيراً ومنظماً

جيداً ، يضم داخل أسواره مئة من الرهبان ، وكان مختبئاً بين غابات الصنوبر العملاقة ، ويجرى بجواره نهران ، فكان المنظر خلاباً ومناسباً تماماً لدير تأملى ، وفى إحدى رسائله ، كتب ثيؤفان يقول:

«التنظيمات الرهبانية هنا حسنة ، وآباء المجمع (أى الرهبان) كلهم صالحون ، ورغم أن الخدمات طويلة لكن يمكن أن يعتاد عليها الإنسان .

تبدأ صلاة باكر الساعة ٣ صباحاً وبعدها فوراً يُصلى القداس الأول ، ثم نصلى القداس الثانى فى الساعة الثامنة ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر نصلى الغروب ، وفى الساعة السابعة صلاة النوم ، وعندنا بعض الآباء الأشداء فى الصلاة الذين يقفون طوال الخدمة ولا يجلسون أبداً بل أنهم يحزنون إذا طلب منهم أحد أن يجلسوا» .

وبعد ثلاثة أشهر من توليه رئاسة الدير ، طلب ثيؤفان من المجمع المقدس إعفائه من رئاسة الدير لما لها من أعباء إدارية ومالية تعوق سلامه وخلوته، وفعلاً وافق المجمع وأصدر فى

سبتمبر عام ١٨٦١م القرار التالى:

١) إعفاء الأسقف ثيؤفان من رئاسة دير ڤيشا .

٢) يُحفظ له الحق فى إقامة الليتورچيا وقتما شاء .

٣) يجب أن يخضع له أخوة دير ڤيشا فى الخدمات الكنسية .

٤) يُقدم له معاش مقداره ١٠٠٠ روبل (سنوياً) منذ تاريخ تركه لرعاية إيبارشية ڤلاديمير (وقد كان ثيؤفان يستخدم هذا المبلغ كما سنقرأ فى الكثير من أعمال الرحمة وسد أعواز المحتاجين) .

فى الأعوام الستة الأولى من حياته فى الدير ، اعتاد ثيؤفان أن يحضر جميع الخدمات فى الكنيسة والقداس الأول ، وفى الكنيسة كان يقف بلا حراك دون أن يسند على أى شئ وعينيه مغلقتين كى لا يتشتت ذهنه ، فى أيام الأعياد كان يخدم القداس بنفسه .

وكان مسكن الأسقف فى الدر العلوى من إحدى مبانى الدير الصغيرة ، وكان يتكون من قلاية وحجرة معيشة ،

وكنيسة صغيرة اسماها على اسم الثيؤفانيا *Theophany* أى الظهور الإلهى ، ومكتبة ضخمة جداً ومنتقاة بعناية ، مع ورشة ليعمل فيها .

فى الأعوام الستة الأولى كان ثيؤفان يستقبل الزائرين ، وفى عيد القيامة عام ١٨٧٢م صار ثيؤفان راهباً حبيساً ، فلم يعد يغادر سكنه ولم يعد يستقبل زواراً عدا رئيس الدير وأب اعترافه وراهب كان يخدمه يُدعى اڤلامبى *Evlampy* * ، وحتى هؤلاء لم يكونوا يذهبون إليه إلا عندما يطلبهم ، ولم يعد ثيؤفان يذهب إلى كنيسة الدير ، بل كان يصلى الخدمات الليتورچية فى كنيسته الصغيرة ، وفى التسع سنوات الأولى من حبسه كان يصلى القداس فى أيام الآحاد والأعياد ، وفى الاحدى عشر سنة الأخيرة كان يصلى القداس يومياً .

ومعرفتنا عن هذه الفترة من حياة ثيؤفان قليلة للغاية ، ولكننا نعرف انه كان يحيا بحسب نظام قاسى فى الحبس ،

* أڤلامبى *Evlampy* تلميذ ثيؤفان خدمه لمدة ٢٥ عاماً ، وبعد نياحته صام لمدة عشرة أيام ، بل وتنيح بعد معلمه بأسبوعين .

ففى المساء كان اقلامبى تلميذه يرتب الحمل والأباركة وثياب الخدمة ، وفى الصباح كان ثيؤفان يصلى القداس ثم يحتسى شاى الصباح ، وفى الساعة الواحدة كان يتناول وجبته الوحيدة وهى عبارة عن بيضة وكوب من اللبن فى الأيام التى ليس فيها صوم مع بعض كسرات من الخبز ، وفى الساعة الرابعة كان يشرب كوباً أخر من الشاى ، وهذا كل ما كان يتناوله يومه .

وطوال اليوم كان يعمل فى الكتابة والترجمة والمراسلات ، وفى فترة حبسه هذه ، وضع ثيؤفان كتباً عديدة قيمة للغاية ، بل فى الواقع مكتبة كاملة .

وكان يتلقى ما بين ٢٠ إلى ٤٠ رسالة يومياً ، فيجيب عليها ويرد على ما فيها من تساؤلات ، إذ رغم انه لم يكن يستقبل أحداً إلا أنه كان مستعداً دوماً للرد على الخطابات التى تطلب منه نصيحة روحية أو كلمة منفعة .

ويمكننا ايضاً أن نرى لمحات من حياته فى الحبس من كتاباته ، فقد كتب لأحد مراسليه يعلمه ما يجب أن يفعله بعد

القداس ، فيقول له أن الإنسان يجب أن يُسرع بعد القداس إلى حجرته بعد الكنيسة مباشرة ، ويطلب من الرب أن يقضى هذا اليوم فيما هو نافع لنفسه ، ويجب أن لا ندع أفكارنا تتشتت بل نقول بهدوء وتركيز «يا رب ارحم» ، ثم بعد ذلك يجب أن يعمل الإنسان إما فى الصلاة أو فى عمل اليدين ، ولا يستطيع أحد أن يقضى وقته كله فى العمل الروحى فقط ، لذا كان ضرورياً جداً أن يشتغل الإنسان بعمل يدوى ، ولكن يجب ألا يمارسه إلا عندما ترهق النفس ولا تستطيع القراءة أو التفكير أو قراءة الصلوات ، وعندما تسير التدريبات الروحية حسناً ، يترك العمل اليدوى جانباً ، فهو فقط لشغل الوقت لئلا يضيع فى البطالة .

وكان يقضى وقته فى الحبس كالأتى:

- العمل الروحى من فكر تام فى الله وجهاد وصلاة .
- الترجمة وكتابة وتأليف كتبه .
- الرد على الرسائل .
- العمل اليدوى ، إذ كان ثيؤفان رساماً قديراً ونحاتاً على الخشب .

كان ثيؤفان يحب المعرفة ، وكان يعتبر كتب التاريخ والطبيعة أفضل ما يجب أن يُقرأ لأنها تظهر عمل الله ، ويتضح ذلك من الكتب التى وُجدت فى مكتبته بعد نياحته ، إذ كان يدرس العلوم ، والطب ، التشريح وعلاقته بالرسم ، علم النفس ، علم الأحياء ، التاريخ ، بل وحتى الفن والنحت .

ويُذكر عن ثيؤفان محبته غير المحدودة وعطفه على كل إنسان فقير ، وسُجل عنه ان بريده اليومى نادراً ما كان يخلو من خطابات تتضمن طلبات من أناس فقراء وكان يساعدهم بقدر استطاعته .

واعتاد أن يتسلم المبلغ الذى قرره له المجمع قبل أعياد الميلاد والقيامة ، ويحجز منه القدر اللازم لنشر كتبه وترجماته ، ويوزع الباقى كله على المحتاجين ، وكان اقلامبى تلميذه يرسل يومياً الكثير جداً من المظاريف التى تتضمن نقوداً للأرامل والأيتام وكل المعوزين ، ولم تكن ابداً مبالغ ضئيلة ، وايضاً اعتاد أن يوزع كتبه كهدايا وكان يقول «ليس لى تجارة أخرى ، لكن ها كتابِ صغير لك» .

ورغم انه كان ينفق كل ماله فى مساعدة المعوزين ، إلا أنه لم يكن يقبل أبداً أى عطايا من أحد ، وحدث يوماً أن وصله مبلغ ٢٥ ألف روبل ليوزعها على أعمال المحبة ، لكنه أصر على أن تُرسل ثانية إلى صاحبها فى نفس اليوم .

ومن أمثلة رعايته للمحتاجين ، صنيعه مع أحد الأيتام ، إذ عندما علم بأن هناك صبى بلغارى يتيم ليس له من يحتضنه ويهتم به ، أرسل ثيؤفان إلى ابن اخيه يطلب منه أن يُدخل هذا الصبى إحدى المؤسسات الخيرية ويقوم هو (أى ثيؤفان) بدفع ١٠٠ روبل فى العام .

رغم ان ثيؤفان كان حبيساً إلا أنه كان معروفاً جيداً فى روسيا كلها من خلال مراسلاته وكتاباته وترجماته ، ومُنح الزمالة الفخرية للاكاديميات الكنسية الروسية ، ودرجة الدكتوراة فى اللاهوت ، وعُرض عليه أن يعود للخدمة فى العالم إلا انه اعتذر عن ذلك .

عاش ثيؤفان نحو ثمانين عاماً بصحة تماماً ، وكانت الحياة

فى الدير تناسبه تماماً ، إلا أن إنتاجه الفكرى والأدبى بجانب نسكياته الشديدة وسنه المتقدمة ، أدوا جميعاً إلى ارهاقه وتعبه ، ففى عام ١٨٧٩م ترك ثيؤفان الدير للعلاج من مياه بيضاء فى عينيه ، لكنه استمر فى عمله وحياته كالمعتاد ، وفى عام ١٨٨٨م فقد البصر تماماً فى إحدى عينيه إلا انه استمر ايضاً فى نفس نهجه فى حياته ولم يغير من أسلوب حياته ونسكياته حتى نياحته ، فقط قبل انتقاله بخمسة أيام حدثت بعض التغيرات فى نظامه اليومى ، وفى عشية نياحته فى الخامس من يناير ، شعر ببعض التعب فطلب من تلميذه أقلامبى أن يساعده كى يمشى ، فساعده لبضعة خطوات حول الحجرة ، لكن سرعان ما أرهق ، فصرف التلميذ واضطجع ، وفى يوم نياحته ، عندما لم يسمع أقلامبى أى صوت من القلاية ، نظر إلى مكتبة ثيؤفان نحو الساعة الواحدة ظهراً فوجده جالساً يكتب ، وبعد نصف ساعة كان هناك طرق خفيف (هكذا كان يدعو تلميذه) وفى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر عندما لم يسمع أقلامبى الطرق المعتاد ، نظر فوجد

الأسقف المجاهد قد تنيح... ويده اليسرى على صدره بينما يده اليمنى كانت على شكل وضع البركة الأسقفية .

بعد نياحته ، وُضع جسده لمدة ثلاثة أيام فى كنيسته الخاصة ، كنيسة الثيؤفانيا ، ثم ثلاثة أيام أخرى فى الكاتدرائية ، وبالرغم من ذلك لم يمسه أى فساد ، بل كان يبدو كانسان نائم فى هدوء وسلام ، وحضر الأسقف هيرونيموس من تامبوف فى الثانى عشر من يناير مع الاكليروس والخورس ، وبعد الليتورچيا ، صلوا عليه طقس التجنيز ، ثم أخذ الشعب جميعه بركته ، وبعدئذ وُضع الجسد فى مقصورة فى كنيسة ڤلاديمير فى كاتدرائية كازان ، وحضر الدفن عدد ضخم من الذين لم يتمكنوا من حضور صلوات التجنيز ، وكانوا يبكون وينوحون ، وقد حضر خصيصاً أناس ساروا على أقدامهم نحو ٢٠٠ كيلومتر وأخرون مشوا نحو ٣٠٠ كيلومتر لينالوا بركته ويطلبون له النياح ويسألوه أن يصلى لأجلهم أمام عرش الله .

أُعترف بقداسة ثيؤفان وأُعتبر من قديسى الكنيسة الروسية

وذلك فى عام ١٩٨٨م فى الاحتفال باليوبيل الألفى للكنيسة الروسية ، ورغم انه قضى الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة من حياته فى وحدة كاملة ، إلا أن شهرته وقوة كلماته قد عبرت أسوار دير ڤيشا وانتشرت بعيداً ، وكان للعملين الكبيرين الذين ترجمهما واضاف إليهما ونشرهما أى «الفيلوكاليا» و«الحروب الروحية» تأثير عظيم فى الأوساط المسيحية .

أعماله

رغم حبسه وجهاداته ، كان ثيؤفان كاتباً بارعاً وناشراً نشطاً ، فكتب العديد من الكتب الهامة عن الأناجيل والعهد الجديد ، وعن الحياة المسيحية الحقيقية ، وعن الأهداف الروحية الحقيقية التى وُلد الإنسان لاجل تحقيقها والتى تحفظ حياة الإنسان من أن تصير خاوية أو عديمة الفائدة .

ففى الأعوام الثمانى والعشرين التى قضاها فى دير ڤيشا ، كتب ثيؤفان قدراً كبيراً من الأعمال وترك مكتبة ثمينة ، والقائمة الكاملة بأعماله تتضمن ٧ كتب ، ثلاثة منها مقتبسات من مراسلاته الضخمة التى استمرت يومياً لمدة ٢٥ عاماً وهى :

١) رسائل عن الحياة الروحية .

٢) رسائل عن الحياة المسيحية .

٣) رسائل لأشخاص متنوعين عن موضوعات مختلفة فى الإيمان والحياة .

٤) ما هى الحياة الروحية وكيف نعيشها .

٥) عن التوبة والتناول وتقويم الحياة .

٦) عن الصلاة والسهر.

٧) طريق الخلاص .

كما كتب ايضاً تفاسير وشروحات لرسائل بولس الرسول كلها تقريباً وعلى المزمور ٣٣ والمزمور ١١٨ ، وأعاد نشر عملين هامين:

١) القوانين الرهبانية الأولى (قوانين باخوميوس ، وقوانين باسيليوس الكبير ، قوانين يوحنا كاسيان ، قوانين بندكت) .

٢) عظات سمعان اللاهوتى الجديد (من قديسى الكنيسة الخلقيدونية) .

كما أعاد كتابة ونشر كتابين هامين للغاية فى تاريخ الروحانية الروسية:

١) الحرب غير المنظور ة(الحروب الروحية) .

٢) الفيلوكاليا الروسية .

١) الحرب اللا المنظورة (الحروب الروحية)

UNSEEN WARFARE

يتضمن عمل ثيوفان هذا عملين كتبهما قس ناسك كاثوليكى إيطالى يُدعى لورنزو سكوبولى *Lorenzo Scupoli* (١٥٢٩-١٦١٠) وهو من الحركة المضادة للإصلاح *The Counterreformation*، الأول هو «الحروب الروحية» والثانى هو «الطريق إلى الفردوس» وكانا قد ظهرا فى عام ١٥٨٩م وأضاف إليهما لورنزو الكثير فيما بعد فى طبعات أخرى .

وفى القرن الثامن عشر ترجم الراهب نيقوديموس الأثوسى (أى من جبل أثوس باليونان) هذين العملين إلى اليونانية ، ولكنه وضع لهم عنواناً جديداً هو «الحرب اللامنظورة» ، وقد عدلت هذه الترجمة وغيرت كثيراً فى الأصل ليتفق مع

احتياجات القارئ الأرثوذكسى ، واضاف نيقوديموس تشبيهات وملاحظات ثمينة ، وأمثال من الكتاب المقدس ومن آباء الكنيسة ، ورغم انه أوضح انه ليس واضع الكتاب ، إلا أنه لم يذكر اسم المؤلف ولا جنسيته .

وصار لهذا العمل مكانته المتميزة فى الكنيسة اليونانية حتى اليوم ، وفى القرن الـ ١٩ وصل هذا العمل إلى روسيا ، وقرر ثيؤفان الحبيس أن يترجمه إلى الروسية ، وكما فعل نيقوديموس ، كذلك اضاف ثيؤفان وعدل فى الكتاب لكن على نطاق أوسع ، فبينما ترك الاطار العام للكتاب كما وضعه المؤلف الأصلى ، عدل فى أجزاء أساسية فيه ، بل واعاد كتابة أجزاء أخرى بالكلية ، إذ كان يهدف إلى أن يكون العمل معبراً عن التقليد الروحى الأرثوذكسى ، فكانت تعديلاته على وجه الخصوص كبيرة للغاية فى الفصول الخاصة بالصلاة ، حتى يمكن أن يُقال انها من تأليفه ، وقد شهد سرجيوس بولشاكوف *Sergius Bolshakof* أن الكُتاب الغربيين أخبروه أن الترجمة المُنقحة والمُعدلة التى قام بها ثيؤفان لهذا العمل هى أفضل بكثير من الأصل .

٢) الفيلوكاليا الروسية (الدوبروتوليبى)

DOBROTOLUBYIE

خبرة ثيؤفان ومعرفته الواسعة بأعمال آباء الكنيسة الأولى اعطته أعظم ثمارها فى تجميعه وتصنيفه الدقيق للفيلوكاليا اليونانية عام ١٨٨٣م ليقدم خمسة مجلدات معروفة للروسيين باسم الدوبروتوليبى ، وتعتبر من أعظم الكتب الروسية على الإطلاق ، ومن هنا كانت إسهامة ثيؤفان الحبيس فى إثراء الروحانية الروسية تُعتبر من أهم أعماله .

ولكى ندرك مدى إسهامه فى نشر الفيلوكاليا ، لابد أن نعرف أن الفيلوكاليا الأصلية هى عبارة عن مجموعة نصوص يونانية لآباء الكنيسة ما بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر ، وقد جمعها فى القرن الـ ١٨ الراهب نيقوديموس الأثوسى ومكاريوس الكورنثى ، ونُشرت عام ١٧٨٢ م .

ثم ترجم الراهب الروسى بايسيوس *Paisius* مجموعة من النصوص التى وردت فى الفيلوكاليا اليونانية إلى اللغة

السلافية ، ونشرها فى موسكو عام ١٧٩٣م ، وكانت هذه هى الدوبروتوليبى الصغيرة ، وكان لها أثر ضخم على الروحانية الروسية ، وتُرجمت إلى الروسية عام ١٨٥٧م .

ثم جاء ثيؤفان الحبيس عام ١٨٧٧م ونشر الفيلوكاليا الروسية باسم الدوبروتوليبى ، على نفقة دير القديس بانتيليمون *Panteleimon* وهو دير روسى فى جبل أثوس ، وكانت هذه الطبعة مختلفة تماماً عن النسخة الأصلية اليونانية ، لأن ثيؤفان حذف بعض الصفحات وأعاد صياغة صفحات أخرى ، إذ كان يعتبر ذلك نوعاً من الترجمة الحرة ، وبجانب الـ ١٢٠٠ صفحة الموجودين فى نسخة فينيسيا من الفيلوكاليا اليونانية ، اضاف ثيؤفان إليها ١٣٠٠ صفحة أخرى فضاعف حجمها ، والمجلد الأول من هذا العمل الضخم والذى يتكون من خمسة مجلدات ، نُشر عام ١٨٧٧م ثم أُعيد طبعه أعوام ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ ، ١٩٠٥، ١٩١٣ .

نشر ثيؤفان العديد من كتبه بنفسه ، واهتمامه بطباعة ونشر هذه الكتب يعكس الجانب العملى من شخصية هذا

الحبيس ، وفى نصائحه لابن أخيه والذى كان يتابع أعمال الطباعة والتوزيع ، كان ثيؤفان يظهر دراية وخبرة واسعة بالطباعة وكان يهتم بكل شئ: الكتابة ، الورق ، المداخل ، الخطوط ، الخ ، وكان يكتب تعليمات واضحة بخصوص ذلك .

كما كتب «قصة الإنجيل بكلمات الإنجيليين القديسين فى ترتيب متابع» واظهر عنايه خاصة به وتابع كتابته بنفسه لانه كلمة الله لذا لابد ألا تكون فيه اى أخطاء املائية ، وقد كتب لابن أخيه يوصيه أن يعد صاحب المطبعة بمكافأة إذا خرج العمل بدون اخطاء إملائية .

ويتضح اهتمامه بخدمة الفكر والنشر من قوله لأحد الخدام الذين يعملون في خدمة الكتابة :

«هل الكتابة خدمة للكنيسة أم لا ؟ إذا كانت هكذا وكانت لائقة وضرورية للكنيسة لماذا تطلب أو تريد خدمة غيرها ؟» .

ملامح من فكره

يعتبر كتاب « طريق الخلاص» أهم أعمال ثيؤفان ، إذ يلخص لنا روحانية هذا الحبيس ، وبحسب «الطريق» هدف الحياة المسيحية هو الإتحاد مع الله ، وطريق هذا الإتحاد يكمن فى الإيمان والحياة بحسب وصايا الله ، والإنسان المسيحى يخلص بنعمة الروح القدس التى تُعطى مجاناً بسبب الفداء الذى تممه الإله الكلمة المتجسد ، ويتمتع المسيحيون بهذا الفداء وهذا الخلاص تحت إرشاد الكنيسة وفى الكنيسة ، ولكى يبلغ المسيحى قامة ملء المسيح ، لابد أن يتطهر ويتنقى أولاً بالتدريبات النسكية الخارجية ثم بالتنقية الداخلية ، وهناك ثلاث مراحل:- بداية الحياة المسيحية ـ النمو والتقوّى فيها - واخيراً الكمال .

وبمعنى أخر ، المرحلة الأولى هى التحول أو التغيير ، والثانية التنقية أو التطهير ، أما الثالثة فهى التكريس ،

ويعد وصف ثيؤفان لهذه المراحل من الروائع الفريدة فى الأدب النسكى الروسى .

فى المرحلة الأولى ، ينتقل الإنسان من خطيته إلى نور الحق والفضائل المسيحية ، وفى الثانية يعد نفسه لاستقبال الرب بتنقية نفسه من الأدناس الداخلية ، وفى الأخيرة يأتى الرب ويسكن فى قلب الإنسان .

تبدأ الحياة المسيحية بالمعمودية ، وتنمو فى الأسرة المسيحية بالتعليم اللائق للأطفال والذى يحدد مستقبلهم ، وفى الغالب يفقد الناس نعمة المعمودية ويسقطون فى سبات وبلادة روحية ، والتى تظهر فى القلق والهم بسبب أشياء عديدة ، اهتمامات أرضية وأعمال كثيرة مع إهمال ولا مبالاة بالحياة الروحية ، وقليلون فقط هم الذين يستيقظون من هذا السبات الروحى ، بعمل النعمة الإلهية ، سواء بتغيير كامل مفاجئ كما حدث مع شاول الطرسوسى ومريم المجدلية ، أو عن طريق تغيير تدريجى فى الحياة ، وفى هذه الحالة الأخير يأتى للإنسان فكر أن يعيش حياة أفضل واكثر إقتداءً بالمسيح ، وعادة لا يثمر هذا

الفكر تغييراً تاماً رغم أن الإنسان يرحب به ، ويؤجل التغيير إلى ميعاد مستقبلى عندما يكون هناك «فرص أكثر!» ، وينصح الأسقف بعدم تأجيل التوبة إلى أى ميعاد مستقبلى أو لانتظار أى فرص مواتية ، إذ ربما لا تأتى ابداً ، وبدايات الطريق هى ضبط الجسد واستعباده ، وهذا يبلغه الإنسان بالتدريبات النسكية ، لكنه مجرد بدايات ، إذ لا تزال هناك عقبتان وهما: الهموم ، وتشتت الذهن .

يكتب ثيؤفان: «إن الهموم والمشغوليات لا تترك للإنسان وقتاً لكى يهتم بنفسه ، فهناك عمل فى اليد وعشرات من الأعمال فى الرأس ، وبهذه الطريقة تدفع الهموم والإنشغالات الإنسان دوماً إلى الأمام دون أن تدع له أى فرصة ليتأمل فى حاله ، لذلك اترك عنك لبعض الوقت سائر الإنشغالات والاهتمامات بدون استثناء ، إذ يمكنك أن تهتم بها فى الوقت المناسب ، أما الآن فدعها جميعاً عنك ، لكن حتى حينما تدع عنك الإنشغالات والقلق يسود اضطراب فى ذهنك لوقت طويل ، فالأفكار تتوالى وتتسابق الواحدة تلو الأخرى ، وتناقض بعضها البعض ، فتشتت النفس ويميل الذهن أحياناً

إلى جانب ، ثم فى حين أخر يميل إلى جانب أخر ، مما يحول دون ترسيخ أو تثبيت أى شئ دائم ثابت» .

وبحسب هذا المجاهد الحبيس ، لا يمكن أن ينال الإنسان أى درجة من الثبات الروحى دون أن يجلس فى خلوة ، وأفضل مكان لحياة الخلوة هو الدير ، وكلما كان أبعد كلما كان أكثر نفعاً ، وأفضل وقت هو الصوم الكبير ، ففى الوحدة يفيق الإنسان تدريجياً إلى نفسه ويدرك خطيته وفساده ، فيعتريه اشتياق أن يصلح حياته ويقومها ، ويسمع الصوت الداخلى الذى يقول: «توقف ، إلى أين وصلت؟» ومن تأمل الإنسان فى خطاياه وأثامه وشهواته ، تتولد المخافة ، وعندما توقظ النعمة نفسه من غفلتها ، يدرك الإنسان اعتماديته على الله وبشاعة وجسامة الخطية ، ويبدأ ضميره يصحو ويشعر بحلاوة فى الله كأسعد وأأمن ملجأ له من كل المتاعب والضيقات ، لكن قليلاً ما يعتزم الإنسان ويصمم على تغيير حياته ، إذ تثور كل عاداته وسلوكياته على الذبيحة المفروضة عليها ، ولا يمكن للإنسان أن يخلص إلا بالنعمة الإلهية مع تصميم وعزم ثابت من جانبه .

ويشرح ثيؤفان أن التعزيات الروحية والنوايا الصالحة ، ربما تمنع الإنسان من الرجوع للوراء لكنها لا تستطيع أن تجعله يتقدم وينمو ، وهنا يظهر الإحتياج للنعمة الإلهية ، وأول ما يجب علينا أن نفعله هو أن نجد جذر الخطية الذى فى القلب ، وتعتبر الشفقة على النفس واللطف فى معاملتها ، الخوف من الناس ، الحسيات ، النزعات الأرضية والارتباط بالعالم ، هى الملامح الأساسية للقلب الخاطئ ، ونحن جميعاً نميل أن ننظر إلى ذواتنا كما تنظر الأم الحنون إلى أولادها ، منتحلين الأعذار بكل طريقة ممكنة ونندب قدرنا الحزين الذى سببته - كما هو مفترض - الظروف السيئة ومؤامرة الأخرين والشهوات الحسية التى تقيدنا ، ونخشى أن نعمل الصلاح لئلا نخالف رأى الناس مهما كان ذلك خاطئاً ، واخيراً نحن مرتبطون جداً بالأمور المادية مثل الراحة والمال الخ.. ، لدرجة أن العالم الروحى بالكاد يوجد فينا .

لابد أن نكون عديمى الرحمة مع النفس ، غير مبالين بالحسيات ولا بآراء الأخرين ، ونعتبر أنفسنا غرباء مسافرون على الأرض ، ولابد أن نقول لأنفسنا «أنا أقوم وأذهب» (كما

قال الابن الضال) ، فالحركة الأولى ـ القيام ـ هى حركة الخاطئ تجاه نفسه ، أما الثانية فهى حركته تجاه الله ، لكن عندما يترك الإنسان الخطية ويصل إلى حدود النور ويستعد للصعود يأتى الشيطان ويهمس «فقط يوم واحد ايضاً ثم....» مقترحاً تأجيل الجهاد الروحى ، وإذ تكون النفس قد تعبت فعلاً من الجهاد السابق تطلب راحة ، فهى لا تقاوم الصلاح لكنها تطلب فقط جهاداً أقل إرهاقاً ، وإذا تم هذا التنازل من قِبل الإنسان يفقد كل شئ وتعود العادات والسلوكيات القديمة لكن بصورة أقوى فالطريقة الوحيدة للخلاص هى أن تسير للأمام بلا رجوع .

بعد أن نبدأ الحياة المسيحية لابد أن نكرسها لله ، فالمسيحى يجب أن يفعل الصلاح ليس فقط من أجل الصلاح نفسه ، وليس فقط لأن كرامة الإنسان الأخلاقية تتطلب ذلك ، بل لانه ذبيحة مرضية لله ، وقد أعطيت للإنسان حرية أخلاقية كى يستطيع أن يقدم هذه العطية لله كأعظم ذبيحة .

أول ما يجب أن تفعله هو أن تتوب توبة حقيقية ، لذا جاهد

من أجل أدق اعتراف ممكن ، ويجب أن يتبع هذه التنقية والتطهير تناول من الأسرار الإلهية مما يزيد الإنسان قوة لكى يحيا حياة جديدة ، وهذا التحول هو عربون حياة جديدة ، والاعتراف والحِلّ هما تأكيدان لها ، والتناول هو إتحاد مع المسيح ، ومنذ ذلك الحين تبدأ النعمة فى افتقاد الإنسان ، ولكن كما أن الطعام ضرورى لحفظ الجسد كذلك الشركة من الأسرار الإلهية ضرورية للحياة الروحية ، وإذ نقدم لله حريتنا ، نعود إليه كعبيد هاربين ، فلكى يستقبلنا الله ، لابد أن نعترف ونقر بخطايانا ونتوب ونعد بعدم الرجوع للخطية كرة أخرى ، ولابد أن نقتدى بالابن الضال الذى عندما عاد إلى أبيه سأله أن يقبله كأحد أجرائه ، وبحسب ثيؤفان ، أن نحيا فى المسيح يعنى أن نحيا حياة إفخارستية قوية .

إن الطريق بين دخول الحياة الجديدة وبين الإتحاد مع الله ليس بالقصير ، وهذا الطريق لابد أن تملئه التدريبات النسكية والتنقية الداخلية ، وبحسب ثيؤفان ، هناك ثلاثة أنواع من الاتحاد مع الله: إتحاد عقلى ، ويحدث فقط أثناء تحول الإنسان نحو الله وتجديد ذهنه ، أما الاتحادان الأخران فهما

حقيقيان ولكن أحدهما خفى غير منظور للأخرين وغير معروف للنفس ، بينما الأخر منظور للجميع .

ويعتمد النجاح فى الحياة الروحية والجهاد على الغيرة والحرارة الأولى ، ومن يريد أن يحفظ حرارته ومحبته الأولى ، عليه أن يحيا داخل نفسه ، ويتأمل فى العالم الجديد ويهتم بالأفكار والمشاعر اللائقة بالحياة الجديدة ، فلابد من البقاء فى الداخل (أى الإنجماع داخل النفس) والتمركز الواعى حول القلب ، وتجميع كل قوى النفس والجسد هناك .

فكل عمل روحى يتطلب تركيز عظيم ، وملكوت السموات داخلنا وكى نجده لابد بحسب قول المخلص أن ندخل داخل مخدع قلبنا ، وكل من يدخل القلب ويجمع هناك كل قواه هو روح ملتهبة .

إن من يدخل مخدع قلبه هو إنسان يعيش بدايات الحياة الجديدة ، ولابد له أن يطبع تركيب العالم الروحى على وعيه وضميره ويستقبله فى مشاعره ، ويصف الأسقف ثيؤفان الحبيس هذا العالم الروحى غير المنظور بقوله أن الله الواحد

المعبود فى الثالوث والذى خلق ويحفظ جميع الأشياء ، يرشدنا كلنا فى ربنا يسوع المسيح بالروح القدس ، الذى يعمل فى الكنيسة المقدسة ، وسيستمر الحال هكذا حتى نهاية الأيام ، وعندئذ بعد القيامة والدينونة سينال كل واحد بحسب أعماله وسيكون الله الكل فى الكل ، ولابد أن نتأمل فى هذه الأمور ولنعلم أن بعضها نافع للتأمل فى أيام معينة ، بينما البعض الأخر نافع للتأمل اليومى .

ويعلّم القديس ثيؤفان بأن هؤلاء الذين دخلوا إلى الحياة الجديدة لابد بالضرورة أن يغيروا طريقة ومنهج حياتهم ، فلابد أن يتركوا عنهم العادات والسلوكيات المضادة لروح المسيح ، وسائر الأهواء الرديئة ، مستبدلين إياها بالنقاوة والطهارة ، والحياة الرهبانية هى الحياة المثالية لهذا العمل .

والفضائل تُقتنى أولاً بالتدريبات النسكية ثم بعدئذ بالتنقية الداخلية للقلب ، والتدريبات النسكية الأساسية هى الصوم ، العمل اليدوى ، السهر ، الصلاة ، القراءة فى الأسفار الإلهية وكتب الآباء ، الخلوة ، وأعمال المحبة المادية

والروحية ، وتتحدد نوعية التدريبات بحسب حياة الإنسان السابقة .

أن «تُشكّل القلب» يعنى أن تهذبه وتعلمه فى اشتياق لكل شئ مقدس وفى تحرر ولا مبالاة بكل ما هو زائل ، وليس هناك ما يساعد على تهذيب القلب مثل العبادة ، الفردية والجماعية ، والروح المصلية ، فالشركة الليتورچية تنعش وتحيي النفس وتدخلها عالم جديد ، وينصح ثيؤفان بحضور كل خدمات الكنيسة ـ العشيات والتسابيح وباكر والقداس ـ كثيراً بقدر المستطاع لأن الكنيسة هى الفردوس ، وبينما يجب أن نهتم بالصلاة الفردية ، يجب أن لا نهمل الخدمات الليتورچية ، وكل هذا هام ونافع متى كان الإنسان يحتفظ بحرارته الروحية ونفسه المصلية ، أما لو فترت حرارته ، فلابد من الاعتراف والتناول من القدسات الإلهية ، واخيراً تصير الحياة بجملتها خلوة مستمرة .

وللاعتراف أهمية قصوى فى الحياة الروحية ، فيشرح ثيؤفان انه لابد من الاعتراف الفورى بكل خطية تقلق الضمير

وتتعبه ، لانها إذا أهملت ، سوف تؤدى إلى الفتور ، أما إذا اعترف الإنسان بها ، فانها تؤدى إلى دموع التوبة الدافئة ، وينصح هذا المجاهد الحبيس بضرورة الفحص اليومى للضمير وباليقظة الدائمة للأفكار وبالارشاد الروحى من أب مرشد حكيم (يسمى فى روسيا ستارتز *staretz*).

وخصص ثيؤفان الصفحات الأخيرة من كتاب «طريق الخلاص» لقوانين الجهاد مع الأهواء وكيفية نمو الإنسان وتقدمه صوب الإتحاد مع الله ، وفى حديثه عن الجهاد ضد الأهواء يتبع ثيؤفان مناهج الآباء وخبراتهم خاصة أحد آباء الكنيسة الروسية المشهورين ويُدعى نيلوس الذى من صورا *Nilus of Sora* ، فيشرح أن الإنسان عندما ينتهى من جهاده ضد الأهواء يصل إلى بداية الحياة فى إتحاد مع الله ، والدليل والعلامة الأولى على ذلك هى تركه لكل قلق وهم خاص به مع تسليم تام وكلى للإرادة الإلهية «إن من يسلم نفسه لله ، أو من يكرم بهذه العطية ، يبدأ يتجه نحوه ويعيش فيه ، ولكن هذا لا يعنى إلغاء الحرية (الإنسانية) بل هى لا تزال موجودة لأن تسليم النفس ليس فعلاً نهائياً يحدث مرة واحدة وينتهى ،

بل هو فعل يستمر على الدوام ، إذ أن الإنسان يسلم نفسه لله الذى يقبله ويعمل فيه ويعمل بقدراته وملكاته ، وهذه هى الحياة الإلهية الحقيقية لأرواحنا» .

إن هؤلاء الذين اقتنوا تسليماً كاملاً لله وصلاة دائمة بلا إنقطاع ، هم مستعدون ولائقون للدخول فى حياة الوحدة «ذاك الذى ذاق الحلاة الإلهية يجوع بلا شبع للوحدة لكى يعيشها على الدوام بلا معوقات ، وهو على الدوام يضطرم فى نفسه ناراً مع نار ، جهد مع جهد ، اشتياق مع اشتياق ، لذلك المتوحد هو الأيقونة الأرضية للملاك... هؤلاء الذين يعيشون فى حياة الوحدة المباركة يحيون مثل الملائكة ويتشبهون بطريقة حياتهم ، لانه كما أن الملائكة لن يشبعوا ابداً من تمجيد الخالق ، كذلك هؤلاء الذين يصعدون إلى سماء الوحدة» .

إن «اللاهوى» هو التاج الأخير للمجاهد ، فالإنسان الذى بلا هوى لا يهتم بأى من الأشياء التى تثير وتغذى أهواءه ، فلا تترك تلك الأشياء أى تأثير عليه حتى لو كانت أمامه ، وذلك لانه متحد مع الله ، وذاك الذى يُكرّم بمثل هذه القامة ،

يصير هيكلاً لله الحى الذى يرشده ويعلمه فى سائر كلماته وأعماله وأفكاره... وهؤلاء الذين بلغوا هذه القامة هم أصدقاء لله وقامتهم مثل قامة الرسل لأنهم ايضاً يعرفون الإرادة الإلهية فى كل شئ ، لأن القامة الرسولية هى ثمرة الوحدة عندما يعيشها الإنسان حسناً... ويذكر ثيؤفان أن الله لا يترك كل المتوحدين فى وحدتهم على الدوام ، فهؤلاء الذين بلغوا اللاهوى المبارك فى الوحدة ، والذين كُرموا بالاتحاد الإلهى الحقيقى ويسكنى الله داخلهم ، يُأخذون فى الغالب لخدمة هؤلاء الذين يبحثون عن الخلاص .

ويختم ثيؤفان كتابه «طريق الخلاص» بقوله:

«إننا لا نعلم هنا على الأرض أى شئ يفوق قامة الرسل... هنا نهاية البحث فى الحياة المرضية لله» .

رسائله

تقدم لنا رسائل ثيؤفان الحبيس رؤية عميقة لروحانيته ، إذ هى مملوءة بالنصائح والإرشادات .

فى إحدى رسائله ، يقدم ثيؤفان مقالاً رائعاً عن الصلاة فيكتب:

«الصلاة هى رفع العقل والقلب إلى الله فى التسبيح والشكر والتوسل لأجل الصالحات الروحية والمادية التى نحتاجها» ، لذلك جوهر الصلاة هو ارتفاع وصعود الذهن إلى الله ، فالعقل يقف فى وعى تام أمام الله ، وإذ هو مملوء بالتكريس اللائق ، يبدأ يفتح له قلبه ، وهذه هى الصلاة العقلية ، وكل صلاة يجب أن تكون هكذا . فالصلاة - فى الكنيسة أو فى البيت - إنما تقدم فقط كلمات وشكل الصلاة ، لكن كل إنسان لديه جوهر الصلاة فى قلبه وعقله ، وكل ترتيب الصلوات الطقسية والسواعى مملوء بتوسل العقل إلى الله .

لقد أوصانا المخلص بأن ندخل مخدعنا الداخلى ونصلى لله الآب فى الخفاء ، وإذا كان المخدع يعنى القلب ، إذاً بالتالى ، وصية الرب تعلمنا أن نصلى فى قلبنا إلى الله ، وهذه الوصية للمسيحيين جميعهم ، والرسول بولس يوصى بنفس الأمر قائلاً أننا لابد أن نصلى فى الروح كل حين (أف٦:١٨) فهو يوصى بالصلاة الروحية للمسيحيين جميعهم بلا استثناء ، وهو ايضاً يوصيهم أن يصلوا بلا انقطاع (١تس٥:١٧) ولكن الصلاة بلا إنقطاع مستحيلة إلا فى القلب ، وقد يظن البعض أن الصلاة بلا إنقطاع مستحيلة ، لكن ما دامت ضرورية ووصية حتمية لكل المسيحيين إذاً لابد أن تكون ايضاً ممكنة لأن الله لا يوصى بالمستحيل ، أما كونها صعبة فهذا أمر صحيح ، لكن كل صلاح بصفة عامة صعب ، وإن كانت الصلاة أصعب فما ذلك إلا لأنها مصدر كل صلاح والحافظة له .

إذا سأل أحد «كيف اصلى؟» تكون الإجابة ببساطة «خاف الله» فخبرة مخافة الله تثير الانتباه والوعى فى القلب وتغصبه على الوقوف بتكريس أمام الله ، وهذا الوقوف الروحى العقلى

أمام الله هو الصلاة ، وطالما تظل مخافة الله فى القلب ، يستمر الوقوف العقلى أمام الله ولا يختفى من القلب ، وهذه معونة عظيمة فى الصلاة العقلية ، ولو قال أحد: «الأعمال تشتتنى» يجيبه ثيؤفان بأن مخافة الله ليست فيه ، لأن الأعمال ليست عائقاً عن الوقوف العقلى أمام الله ، ولا عن تذكر الله... اخرج من حياتك كل شئ ردئ وخاوى ولا تترك إلا ما يجب عليك بحسب وصية الإنجيل ، وسوف ترى أن أعظم ضرورياتك والتزاماتك لا تفصل عن الله بل على العكس ، ستجد أنها تجذب قلبك إليه .

عندما تستيقظ فى الصباح ، قف بثبات أمام الله فى قلبك أثناء صلاة باكر ، وبعد ذلك امض إلى العمل المعين لك من الله ، ولكن ابق مع الله داخل وعيك وداخل مشاعرك ، وعندئذ سوف تنجز عملك بقدراتك الجسدية ، بينما تظل فى الله فى الذهن والقلب .

إن من يظنون انه لكى نمارس الصلاة لابد أن نجلس فى مكان ما فى الخفاء ، ونتأمل فى الله ، لا يعرفون معنى

يصير هيكلاً لله الحى الذى يرشده ويعلمه فى سائر كلماته وأعماله وأفكاره... وهؤلاء الذين بلغوا هذه القامة هم أصدقاء لله وقامتهم مثل قامة الرسل لأنهم ايضاً يعرفون الإرادة الإلهية فى كل شئ ، لأن القامة الرسولية هى ثمرة الوحدة عندما يعيشها الإنسان حسناً... ويذكر ثيؤفان أن الله لا يترك كل المتوحدين فى وحدتهم على الدوام ، فهؤلاء الذين بلغوا اللاهوى المبارك فى الوحدة ، والذين كُرموا بالاتحاد الإلهى الحقيقى وبسكنى الله داخلهم ، يُأخذون فى الغالب لخدمة هؤلاء الذين يبحثون عن الخلاص .

ويختم ثيؤفان كتابه «طريق الخلاص» بقوله:
«إننا لا نعلم هنا على الأرض أى شئ يفوق قامة الرسل... هنا نهاية البحث فى الحياة المرضية لله» .

رسائله

تقدم لنا رسائل ثيؤفان الحبيس رؤية عميقة لروحانيته ، إذ هى مملوءة بالنصائح والإرشادات .

فى إحدى رسائله ، يقدم ثيؤفان مقالاً رائعاً عن الصلاة فيكتب:
«الصلاة هى رفع العقل والقلب إلى الله فى التسبيح والشكر والتوسل لأجل الصالحات الروحية والمادية التى نحتاجها» ، لذلك جوهر الصلاة هو ارتفاع وصعود الذهن إلى الله ، فالعقل يقف فى وعى تام أمام الله ، وإذ هو مملوء بالتكريس اللائق ، يبدأ يفتح له قلبه ، وهذه هى الصلاة العقلية ، وكل صلاة يجب أن تكون هكذا ، فالصلاة ـ فى الكنيسة أو فى البيت ـ إنما تقدم فقط كلمات وشكل الصلاة ، لكن كل إنسان لديه جوهر الصلاة فى قلبه وعقله ، وكل ترتيب الصلوات الطقسية والسواعى مملوء بتوسل العقل إلى الله .

لقد أوصانا المخلص بأن ندخل مخدعنا الداخلى ونصلى لله الآب فى الخفاء ، وإذا كان المخدع يعنى القلب ، إذاً بالتالى ، وصية الرب تعلمنا أن نصلى فى قلبنا إلى الله ، وهذه الوصية للمسيحيين جميعهم ، والرسول بولس يوصى بنفس الأمر قائلاً أننا لابد أن نصلى فى الروح كل حين (أف٦:١٨) فهو يوصى بالصلاة الروحية للمسيحيين جميعهم بلا استثناء ، وهو ايضاً يوصيهم أن يصلوا بلا انقطاع (١تس٥:١٧) ولكن الصلاة بلا إنقطاع مستحيلة إلا فى القلب ، وقد يظن البعض أن الصلاة بلا إنقطاع مستحيلة ، لكن ما دامت ضرورية ووصية حتمية لكل المسيحيين إذاً لابد أن تكون ايضاً ممكنة لأن الله لا يوصى بالمستحيل ، أما كونها صعبة فهذا أمر صحيح ، لكن كل صلاح بصفة عامة صعب ، وإن كانت الصلاة أصعب فما ذلك إلا لأنها مصدر كل صلاح والحافظة له .

إذا سأل أحد «كيف اصلى؟» تكون الإجابة ببساطة «خاف الله» فخبرة مخافة الله تثير الانتباه والوعى فى القلب وتغصبه على الوقوف بتكريس أمام الله ، وهذا الوقوف الروحى العقلى

أمام الله هو الصلاة ، وطالما تظل مخافة الله فى القلب ، يستمر الوقوف العقلى أمام الله ولا يختفى من القلب ، وهذه معونة عظيمة فى الصلاة العقلية ، ولو قال أحد: «الأعمال تشتتنى» يجيبه ثيؤفان بأن مخافة الله ليست فيه ، لأن الأعمال ليست عائقاً عن الوقوف العقلى أمام الله ، ولا عن تذكر الله... اخرج من حياتك كل شئ ردئ وخاوى ولا تترك إلا ما يجب عليك بحسب وصية الإنجيل ، وسوف ترى أن أعظم ضرورياتك والتزاماتك لا تفصل عن الله بل على العكس ، ستجد أنها تجذب قلبك إليه .

عندما تستيقظ فى الصباح ، قف بثبات أمام الله فى قلبك أثناء صلاة باكر ، وبعد ذلك امض إلى العمل المعين لك من الله ، ولكن ابق مع الله داخل وعيك وداخل مشاعرك ، وعندئذ سوف تنجز عملك بقدراتك الجسدية ، بينما تظل فى الله فى الذهن والقلب .

إن من يظنون انه لكى نمارس الصلاة لابد أن نجلس فى مكان ما فى الخفاء ، ونتأمل فى الله ، لا يعرفون معنى

الصلاة ، فنحن لا نحتاج إلى مكان خفاء بل إلى قلبنا ، فيجب أن نقف هناك ونتأمل فى الله .

يقول الناس أن الوحدة تساعد كثيراً على النمو فى الصلاة ولكن هذا مستحيل إلا للرهبان لأن المؤمنين فى العالم يعيشون فى أعمال لا تنتهى لذلك ليس لديهم وقت للصلاة ، وهنا يقول ثيؤفان رداً على ذلك ، انه صحيح أن الوحدة نافعة وضرورية لكن هناك نوعين من الوحدة ، النوع الأول هو الوحدة الدائمة الكاملة عندما يخرج الإنسان إلى البرية ليحيا فى وحدة تامة ، والنوع الثانى هو وحدة جزئية مؤقتة ، وإن كان النوع الأول غير مناسب لمن يعيشون فى العالم ، لكن النوع الثانى يناسبهم تماماً ويمكنهم أن يمارسوه ، فكل إنسان لديه كل يوم بعض الدقائق التى يختلى فيها مع نفسه حتى لو لم يحاول أن يرتب لنفسه بضعة ساعات من الخلوة ، وهذا الوقت يمكن أن يستخدمه الإنسان لينمو فى الصلاة العقلية والوقوف القلبى أمام الله ، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يجد لنفسه الأعذار ويقول انه ليس لديه وقت لممارسة الصلاة العقلية «ابحث عن

ساعة وافحص نفسك ، اترك عنك كل الهموم وقف عقلياً فى قلبك أمام الله وافتح له نفسك» هذه هى نصيحة ثيؤفان الحبيس .

ويشرح ثيؤفان فكرته عن الخلوة الداخلية بقوله انه بجانب الخلوة الخارجية هناك ايضاً الخلوة الداخلية ، فخارج الإنسان ، يمكن أن يكون هناك نهر معتاد من الاهتمامات البشرية ، لكن فى نفس الوقت يمكن أن يكون هناك منْ يقف فى القلب دون أن يلاحظ ما يحدث حوله ، فالجميع يعلمون انه عندما ينشغل الإنسان بالحزن لا يرى ولا يسمع مهما كانت الضوضاء حوله ، إذ انه وحده فى قلبه منشغلاً بحزنه ، وكلنا يعلم ذلك من الخبرة الشخصية ، فاذا كان الأمر هكذا فى الحياة الطبيعية إذاً يمكن أن يحدث ايضاً فى الحياة الروحية ، فعندما يبدأ الإنسان يحزن فى قلبه ، سوف يستطيع أن يثبت وعيه وتركيزه فى قلبه ، وهكذا يكفى أن تجاهد لأجل نوال تلك الحالة الداخلية كى تكون فى خلوة على الدوام أياً كان المكان الذى أنت فيه ، وهذا ليس أمراً صعباً ، فقط اقتنى

مخافة الله وسرعان ما ستحزن وينسحق قلبك ، عندئذ تثبت انتباهك على الشئ الواحد الذى تحتاجه: كيف يجب أن تظهر أمام وجه الله؟ هذه هى الخلوة .

وفى إحدى رسائله ، يكتب ثيؤفان عن صلاة يسوع وكيف أنها تُقال شفاهة وعقلياً وقلبياً ، وفى حديثه عن الصلاة الشفاهية يقول:

«فى صيغتها المختصرة ، تُقال هذه الصلاة كما يلى "يا ربى يسوع المسيح ، ارحمنى أنا الخاطئ" وفى صيغتها الكاملة تُقال هكذا "يا ربى يسوع المسيح ، ابن الله ، ارحمنى أنا الخاطئ" ورغم أن هذه الصلاة تُقال فى البداية بتغصب ، إلا انه بعد بعض التدريبات وغصب النفس ، إذا كان هناك عزم ثابت على ضبط أهوائنا الكثيرة عن طريق الصلاة والمعونة ، تخمد هذه الصلاة الأهواء بسبب الممارسة وتزداد سهولة وحلاوة» .

فى الصلاة الشفاهية لابد أن نبذل كل جهد لنثبت العقل والذهن على كلمات الصلاة ونقولها ببطء مركزين انتباهنا كله على الأفكار المتضمنة فى هذه الكلمات ، وعندما يشرد العقل

فى أفكار غريبة ، يجب أن نثبته فوراً فى كلمات صلاتنا مرة ثانية ، وتُعطى للعقل نعمة عدم التشتت بعد وقت طويل ، ليس عندما نريد نحن ، بل عندما نتضع ويهبنا الله إياها .

لقد قال رب المجد «من اراد أن يتبعنى فلينكر نفسه ويحمل صليبه» (مت١٦:٢٩) إذا طبقنا هذه الكلمات على الصلاة ، نجدها تعنى: منْ يريد أن يدرب نفسه على الصلاة ، يجب أولاً أن ينكر نفسه ومشيئته الخاصة وأحكامه ويحمل صليبه ، أى العمل الجسدى والروحى الضرورى والحتمى لهذا التدريب ، وعندما نسلم ذواتنا تماماً للعناية الإلهية الساهرة دوماً ، يجب أن نحتمل باتضاع وبسرور العمل لأجل الصلاح الحقيقى الذى يهبه الله فى الوقت المناسب لإنسان الصلاة الحارة ، عندما يضع الله بنعمته حدوداً لذهننا ويثبته بلا تشتت فى تذكره لله وفى صلاته .

وفى رسالة للأم ماجدالين *Magdalen* من دير زنامنسكى *Znamensky Eletsky* وهى راهبة «استلمت الطقس الملائكى العظيم» يكتب ثيؤفان عن أعلى قامات الصلاة التى اختبرها

هو بنفسه فيقول انه فى البداية عندما يتوب الإنسان ويتحول نحو الرب ، تكون الصلاة أول تدريباته ، ويبدأ يذهب إلى الكنيسة ويبدأ يصلى فى مخدعه سواء بكتاب الصلوات (الأجبية) أو بدون كتاب ، لكن طوال الوقت توجد أفكار تجول وتطوف فى ذهنه وتشتته ، ومن المستحيل أن يضبطها ، لكن مع استمرار التدريب فى الصلاة ، تبدأ أفكاره تثبت وتصير صلاته أكثر نقاوة .

وفى رسالة أخرى يقول ثيؤفان أن الإيمان المسيحى ليس مجرد نظام عقيدى ، بل هو وسيلة وطريقة لاستعادة الإنسان الذى سقط ، بموت الإله المتجسد وبنعمة الروح القدس «انظر أى من هؤلاء الذين تبعوا الرب وسترى انه قليلاً قليلاً ينمو فى الروح ويصير عظيماً» والأب سيرافيم (أى سيرافيم ساروفسكى) هو مثال لذلك ، لقد كان بسيطاً غير متعلم ، لكن مع ذلك إلى أى علو قد ارتقى؟!

وكان ثيؤفان يؤكد دوماً على أهمية الحياة الكنسية وعلى انه لا خلاص لأحد خارج الكنيسة ، فيقول:

«لا يمكن لأحد أن يخلص وحده ، لأن الرب قد صنع جسداً واحداً من المؤمنين جميعهم ، فلا أحد يخلص إلا فى الكنيسة أى فى الإتحاد الحى مع جماعة المؤمنين كلهم فى الكنيسة ، ومع الرب نفسه كرأس لها» .

ويؤكد على وحدة الكنيسة فيقول أن الرب قد دعى الكنيسة «كرمة» وهو نفسه الساق ، والمؤمنين كلهم هم الأغصان ، فالكنيسة فى جميع أعضائها هى كلٌ واحد لا ينقسم متحد بحياة الرب نفسه ، وكما يذبل الغصن ويجف متى نُزع من الشجرة ، كذلك فان كل من يفصل نفسه عن كنيسة الله ، وبالتالى عن الرب ، لا تعود له حياة ، ويوضح القديس بولس هذا الاتحاد الحيوى الأساسى بين المؤمنين مع الرب خلال الكنيسة بأن يُسمى الكنيسة «جسد المسيح» ، فنحن المؤمنون جميعاً جسد المسيح ، والمسيح الرب هو رأس هذا الجسد ، وكما هو الحال فى أجسادنا ، كذلك لا يعيش العضو لنفسه بل فى حياة مشتركة مع الجسد كله ، وما إن ينفصل عن الجسد حتى يموت ويفسد ، والمؤمن لا يعيش فى

عزلة وإنفصال بل فى شركة مع حياة الكنيسة كلها ، وإذا انفصل عنها يموت روحياً وهكذا يهلك .

وفى اقتباس واضح بتعليم القديس كبريانوس اسقف قرطاجنة الشهيد ، يقول ثيؤفان الحبيس :

«إن الكنيسة هى أمنا ، وهؤلاء الذين ليست الكنيسة أماً لهم ، لا يكون الله أباً لهم» .

ويُقدس ثيؤفان تقليد الكنيسة الأرثوذكسية المُسلم من الرسل والآباء القديسين ، لذلك لا يعتبر الطوائف البروتستانتية أعضاء فى جسد المسيح ، لأن الذى أسس هذه الطوائف ليس الرسل بل أناس بارادتهم الخاصة وبتدبير من وضعهم .

وعن التدبير السرائرى للكنيسة المقدسة ، شرح ثيؤفان كيف أن سرى التوبة والتناول يهبا للنفس نعمة التبرير والتقديس ، وبحسب وصية الرب ، يقدم جسده ودمه فى كل مكان على الأرض على الدوام لأجل غفران الخطايا ، لذلك ، بحسب ثيؤفان ، كى نشترك فى مراحم الرب هذه ، لابد أن

بحسب ثيؤفان ، كى نشترك فى مراحم الرب هذه ، لابد أن يكون لنا شركة حية دائمة مع كنيسته بأن نعيش ونحيا هذه الأسرار .

كما أكد على أن نوال نعمة الميلاد الثانى تتطلب ايضاً من المؤمن جهاداً وعملاً طويلاً يستمر طوال الحياة ، وذلك أن يجاهد لينقى الروح والجسد ويحررهما تماماً من كل ميل ردئ وكل شهوة ، وأن ينمى الاشتياقات الصالحة فى نفسه ، وقد رتبت الكنيسة الأصوام وجعلتها قوانين للمؤمنين كى تخضع الجسد وتطفئ شهواته ، وأعمال المحبة التى وضعتها ، إنما لكى تزيل الحركات الشهوانية من النفس وتغرس بدلاً منها الأفكار والمشاعر الصالحة ، كما رتبت الكنيسة الصلوات الطقسية المنظمة لكى تهذب النفس وتدخلها فى اتحاد مع اللامنظور .

فكانت الكنيسة بالنسبة لثيؤفان تحتضن كل الإنسان طوال حياته ، فما ان يُولد حتى تأخذه فى أحضانها وتسافر معه طوال حياته وترافقه فى جهاده ثم تصحبه إلى العالم الأتى .

ويشبه ثيؤفان هؤلاء الذين يظنون أن لهم خلاص خارج الكنيسة بالمثال التالى:

«تخيل نهراً واسعاً وعميقاً ، وهناك جسور مُقامة عليه ، وتوجد وسائل أخرى لعبوره كالقوارب ، وكل من يريد أن يعبر إلى الضفة الأخر يسير على الجسر أو يجلس فى القارب ويعبر ، ولكن الآن جاء «أناس حكماء!!» ظنوا انه لا الجسور ولا القوارب ضرورية لهم ، وظنوا أن روحاً سوف تأخذهم وتعبر بهم إلى الضفة الأخرى ، فجلسوا بغرور على شاطئ النهر دون أن يتحركوا ، بل ابتسموا وهم يشاهدون الأخرين يعبرون ودعوهم عديمى العقل .

تُرى هل سيعبر هؤلاء إلى الشاطئ الأخر؟ كلا بالطبع ، بل سيظلون فى موضعهم طوال حياتهم » . *

---

* القوارب والجسور هى أنواع الجهاد القانونية والتى تصل بالإنسان إلى ميناء ملكوت السموات ، ومن يرفضون الجهاد القانونى هذا ، لا يكون لهم ابداً بلوغ إلى ملكوت السموات .

المصادر والمراجع

1) SERGIUS BOLSHAKOFF, Russian Mystics, Cistercian Studies Series, No.26

2) THEOPHAN THE RECLUSE, The Heart of Salvation, translated by Esther Williams, edited by Robin Amis, introduced by George Maloney, S.J., Praxis Institute Press,1991.

3) THEOPHAN THE RECLUSE, Raising Them Right (The Heart of Salvation), translated by Fr. Seraphim Rose, Foreword by Peter E. Gillquist, Conciliar Press,1989.

4) THEOPHAN THE RECLUSE, The Path of Prayer - Four Sermons on Prayer, Praxis Institute Press,1991.

5) CROSS, The Oxford Dictionary of The Christian Church.

الفهرس